على شفير الحياة

قصة الأسير المجاهد أحمد مرعي كريم

أمراء النصر والتحرير

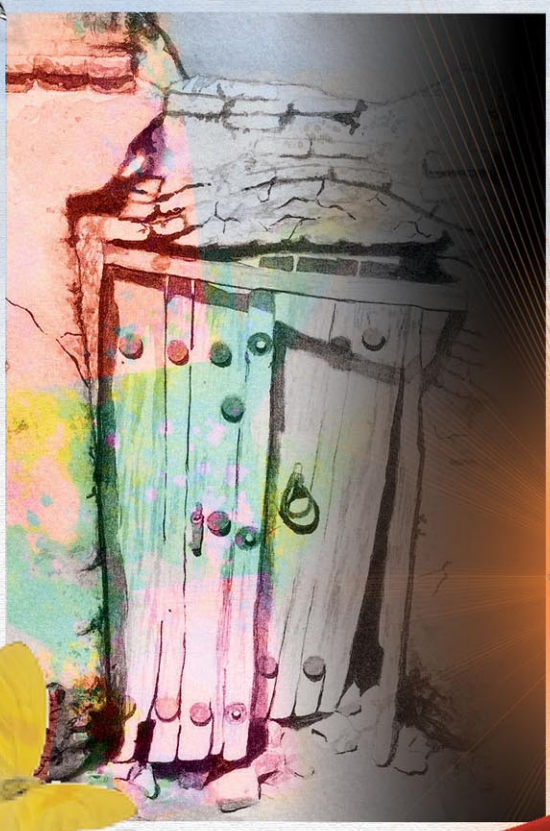

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

على شفير الحياة

الكاتب: سعيد أبو نعسة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٣٢٧/٢٥

- **القصة:** على شفير الحياة.
- **قصة الأسير:** أحمد مرعي كريم.

إســـم الأب: مرعي.
إســـم الأم: فاطمة.
مواليـــد: ١٩٦٤ ـ دير سريان.
رقـم السجل: ٤٧ الريش.
تاريـخ الأسر: ١٩٨٥/٩/١٩.
إسـم السجن: معتقل الخيام.
تاريخ التحرر: ١٩٩١/٩/١١.

- **الكـاتب:** سعيد أبو نعسة.
- **الدرجة:** نالت الدرجة الأولى في المسابقة الثانية لأفضل قصة أسير التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب اللّه وبلدية الغبيري.
- **الناشر:** جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة:** الاولى أيار ٢٠٠٣م ـ ربيع الأول ١٤٢٤هـ. على نفقة بلدية الغبيري.

الإهداء

إلى سواعد شهرت (لا)

في وجه الطغيان وحطّمت بعزمها

صلف السجّان وأطلقت الفجر

من وراء القضبان

إلى جميع الأسرى والمعتقلين

في سجون الإحتلال..

ـ قد لا أكون مبالغاً إذا قلتُ: جفّ حلقي عشر مرات، وأنا أسرد قصّتي على مسامع الكتّاب والصحفيين. وقد تعتريك الدهشة حين تعلم بأنّ ما كُتب عني لا يزيد عن تأريخ إنشائيّ مُملّ. السبب بسيط: كلّ الأقلام ركّزت على ميزة واحدة من مزايا الأدب، أقصد الفكر. وأغفلت العاطفة والخيال والأسلوب.

فإن كنت راغباً في استدرار المعلومات مني، وصبّها في أحد القوالب العشرة السابقة فأنت مُقلّد غير مبتدع، وأنا أعتذر سلفاً عن مدّك بالمعلومات والأفكار.

أما إذا كنت تنشد التميّز فأنت أمام خيار واحد فقط:

ـ أن تصحبني الآن في رحلة قصيرة نحو المسرح الذي جرت عليه أحداث قصّتي، وأن تخوض التجربة بنفسك مهما تجشّمت من مصاعب، فالنص البكر هو ما سُبك على جمر المعاناة وصُقل بغبار التجارب المريرة. ما رأيك؟

ـ موافق !

ـ سأمنحك الفرصة الأخيرة لتسجيل قصّتي قبل أن أستلّ قلمي وأخربشها بأسلوبي المتواضع. سيفتقد النص إلى الأسلوب الأدبي المنمّق، وهذا قلّما يعنيني، وسيعوزه الخيال، وهذا ما لا أعترف به، فالقصة حين تكون أغرب من الخيال لا تعود دقائقها في حاجة إلى الفذلكة البيانية والصور المجنّحة التي تُبهِّر النصّ الأدبي وتزركشه. فماذا قرّرت؟

يراقص السنابل على الضفّتين، حتى انقضّت عليهما طيورٌ غريبة، لا ترى في الكون غير مخالبها، راحت تنشبها في وجه الجمال، وتنفث سُمّها في عنقه.

كنتُ عاشقا للجمال، أشربتُ خديّ احمرار برقوق نيسان، ونقلّتُ قدميّ في كلّ شبرٍ من هذا الحضن الفسيح مطارداً الأصيل المنسحب خلف هذا التلّ الجنوبي، على وقع ملاغاة البلابل الطروب وفي ظلال أجنحة السنونوات المتلاعبة بالجهات.

وذات يوم، اكفهرّت السماء. أطلقت عينيّ في المدى فلم أعثر على أمارة تدلّني على جيوش الغمام!

لماذا إذاً رُعِبت أسراب الحمام؟ ـ تساءلتُ وأنا أصادم الصخور بحثاً عن أقرب المسالك إلى صدر أمّي. قلت لاهثا: «فراشاتي احترقت... وأرجوحتي صارت نتفاً من قطن منفوش».

أطفأتْ أمّي شرارات الغضب في عينيّ، وأجلستني إلى جوارها، تعبث بشعري وتروي لي، قصة الطائرات الغازية، قالت: "لا تفاجأ يا (أحمد) هي لم تنقطع عن الإغارة علينا مذ كنت يافعة مثلك، احذرها يا بُنيّ».

«هذه هنا مدرستي... كانت نبراساً أضاء طفولتي، ومنهلاً عببت منه ثقافة كلّلت أربعة عشر عاماً من حياتي. كانت حيطانها الكلسيّة مُغرية لإظهار الشعارات فرسمتُ على صفحتها: (إسرائيل شرٌّ مُطلق).

الكلّ يعلم مَن أطلق هذه الصرخة، ولكن أحداً لم يُحط بالأمداء التي فَتَحَتها.

نعم! كانت الطائرات تزرع الموت والرعب في عيون الأمّهات والأطفال ولكنها كانت بنيرانها تكشف النقاب عن صحّة مقولات هذا الإمام. وتُقدِّم للمرتابة قلوبهم الدليل تلوَ الدليل على مكر العدوّ وغدره حتى أيقن الجميع أنّ اليهود لن ترضى عن رجل يقول: (إن احتلّت إسرائيل الجنوب، فسأخلع ردائي وأصبح فدائياً).

لم يبطئ القَدَر في إثبات صدق توقّعات الإمام والناس. لبس الإمام ثوبه المرقّط وحزن الناس لتغييبه.

أتعرف يا صاحبي ما الذي يحدث حين يُغَيَّب رمزٌ وطني في بلدٍ ما؟

- أعتقد أنّه يتحرّر من قيود الزمان والمكان، ويرتقي ليصبح رمزاً إنسانياً!

- أحسنت... يومها مسحتُ آخر دمعة في مقلتيّ وقلتُ لأترابي: عرفتُ الطريق!

فلم تُفق المدرسة إلا على صدى صيحاتي.

ناداني مدير المدرسة ذات يوم: «يا أحمد ... أنت تلعب بالنار، وتغنّي خارج السرب، الزمن زمن التطبيع والانخراط في الإدارة المدنيّة. يا حبيبي إن لم ترغب في استقبال المحتلّين بالزهور، فأمسك عليك لسانك، وهذا أسلمُ أنواع الجهاد»!

أذكر أنني رددت عليه: «هذا فعلا هو الأسلم، ولكنّه أضعف الإيمان ...كيف أصمتُ وأنا أراهم يُعملون أنيابهم في جسد الأمة، ويحاولون تهشيم مرآةٍ أردناها عاكسة لظلال الإيمان والثورة المتفجّرة في دار الإسلام؟"

فوجئت ذات صباح، باستعداد زملائي لزيارة مقام (النبي يوشع) في فلسطين. كانوا في انتظاري، فنظرت إليهم بازدراء نَمّ عمّا يعتمل في خاطري من غثيان وقلت: "عارٌ عليّ زيارة فلسطين والنجمات السداسيّة تلطّخ أكتافها».

لسعتني أفعى سامّة ذات صيف قائظ، وأعلنت المشافي داخل الشريط المحتلّ عجزها عن إبرائي، واقترح الطبيب نقلي إلى فلسطين للعلاج فقلت له: «هذه أفعى بلادي، سُمّها أرحم من بلسم الأعداء، عالجني على قدر استطاعتك... الأعمار بيد الله». فأنجاني الله من ذُلّين: شماتة الأعداء وموت الجبناء.

سرتُ واثق الخطوة، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مقاوماً مشاريع التطبيع حتى بلغ السيل الزّبى، وجرف صبر الأعداء، فهبّوا يحصون عليّ أنفاسي.

دُفِعت إلى مراكز التحقيق مرات كثيرة:

❖ نعلم أنك تكرهنا وتكره اليهود، لماذا؟

- (أعداؤك ثلاثة، عدوّك وصديق عدوّك وعدوّ صديقك).

❖ تقول، إنك لست منتميا إلى (المخرّبين) ألم تعلم بأنّ من ليس معنا فهو علينا؟!

- قد تقطع منّي الرأس، ولكنك أعجز من أن تغيّر فكرة تجول فيه. أثبت عليّ تهمة واحدة ثم افعل ما بدا لك!

❖ عمّا قريب سأقرع صدرك بالدليل، وعندها ستندم... ولات ينفعك الندم»!

أنضجتني القرية فصرت مؤهلاً للمرحلة الثانوية. شددت الرّحال إلى (النبطية)... هناك أترى قلعة الشقيف؟

- أجل!

- أنظر إلى الشمال الغربي منها مقدار سهمين. لم أجد كبير عناء في تدبّر أمور المعيشة مع شابّين ورعين. لم تخزن نضارة الشباب في نفوسنا غير فورة الإيمان، فكنت لا تراني إلاّ في الصف الأول من المظاهرات، حتى حفظ العملاء عنواني عن ظهر قلب، فما شوهدتُ إلا غاديا إلى التحقيق أو عائداً من جولاته الروتينية الفارغة.

- كان في استطاعتهم إلقاء القبض عليك بتهمة التحريض، فلمَ لم يفعلوا؟!

- لم يَفُتْهم هذا الأمر البدهيّ، قالوا: «أعطِ (أحمد) الأمان فيدلّك على الأقران».

ذات يوم من عام ١٩٨٣ نُشرت صورتي على غلاف إحدى المجلاّت وأنا أحمل لافتة تندّد باعتقال الشيخ الجليل. تخيّل أن المحقّق عجز عن الفوز بمعلومات هامة منّي، قلت له: «التعبير عن الرأي حقّ تكفله الشرائع جميعها» فضحك ضحكة خبيثة، لم أحلّل مغزاها إلاّ بعد عام تقريباً، عندما سِرت وراء نعش شيخ الشهداء، ذاك الذي قهر هيبة المحتلّ وحطّم جدار الخوف منه حين رفض مصافحته قائلا: (الموقف سلاح والمصافحة اعتراف).

كانت الحناجر مرجلا يغلي بالثورة والتحدّي. حاول الأعداء قطع الطريق بين الثانوية والمعهد المهني في النبطية، فاندفعنا في حلوقهم، مجبرين مدرّعاتهم على التراجع مفسحين للصدور الغاضبة بالالتحام، فلم يجدوا بُدّاً من تطويقنا وتهديدنا بإطلاق النار. ولم نجد غضاضة في الكَرّ عليهم، وامتطاء المدرّعات، ففرّوا أمام صيحات (الله أكبر) هاربين.

نظموا يومها حملات اعتقال، ولكنهم لم يفوزوا من أفواه الشّباب بغير عبارات التمجيد للأرض والوطن. لماذا يتجلبب أيلول بالسواد؟

في مثل هذا التاريخ، أعني ١٩٨٥/٩/١٩ نفّذ المقاومون عملية جريئة قريباً من بيتنا دمّروا فيها ملاّلة صهيونية وقتلوا جنديا وجرحوا ثلاثة، ورغم تفاجئي بالعملية

فقد أيقنت أن الشبهات ستحوم حولي، وأنّ اعتقالي هو مسألة دقائق أو ساعات على أبعد تقدير، وأنّ الإختباء يعني إلصاق التهمة بي، أما الهرب فكان إلقاءً بالنفس إلى التهلكة، وقد سُدّت مسارب الهواء حول القرية. لذا أسلمت أمري إلى الله وانتظرت مجيئهم بعد صلاة المغرب.

قال أحدهم لأمّي «لا تخافي ... بضعة أسئلة كالعادة ونرجعه إليك سالماً».

خرجتُ ليلتها من البيت وقلبي يحدّثني بأن الغيبة ستطول، فأنا مذ حملت لواء (لا) مُتّهم حتى تثبت براءتي، فكيف تخطئني سهام الشّك وقد انفجرت العبوة على بُعد مئة متر من داري ... هنا في هذا الزقاق.

اقتادني العملاء إلى أسيادهم لتلقّي الأوامر، فوجدت نفسي أقف في (مشروع الطيبة) أمام قائد مقرّ القيادة اليهودية، لم يكلّف نفسه عناء السؤال، بل قاسني بنظراته، واستمرّ ينفث دخان غليونه، وقد أسند ظهره إلى الكرسي ماداً رجليه فوق الطاولة في وجه مرافقي. قدّم حارسي فروض الولاء مشفوعة ببسمةٍ تنضح ذُلا واستكانة، فلم يُجبه صاحب الغليون، بل سلّمه أمراً مكتوباً، ونفض أصابع يمناه في وجهه، فتراجع مردّداً كلمات عبرية ظاهر معناها: حاضر سيّدي.

كنت أظن أن التحقيق الأوّلي سيُحوِجني إلى مترجم،

لكنّني فوجئت بمحقّق من سكان هذه القرية المجاورة، يكيل لي الشتائم من عيار ثقيل ما عهدته في قرانا إلا بعد أن زحف العملاء أمام أسيادهم، فأدركت هول ما ينتظرني!

صدق من قال: «وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة..».

- لماذا زرعت العبوّة؟

- لا علاقة لي بالأمر ولا بمن يزرع العبوّات... ولست ساذجا حتى أزرعها قريباً من داري!

- العكس هو الصحيح أيهاالمتحذلق! لقد تعمّدت ذلك حتى تُبعد الشبهة عنك.

إرحم نفسك وهات ما يثمر من المعلومات وإلاّ...!

- لا أعرف شيئاً!

كنت على يقين مما تخفيه كلمة (وإلاّ) من تهديد، وأن إصراري على أقوالي سيُخسرني الدنيا، ولكنّني أيقنت أيضاً أن رضوخي لتداعياتها سيسلبني الدنيا والآخرة. فقرّرت الفوز بإحدى الحسنيين. هل حُبستَ في حاوية؟

- ليس بعد!

- لا تتمنَّ ذلك! كانت مخزنا (لكراكيب) الأعداء وتجهيزاتهم، وكانت على وشك الامتلاء، لدرجة أنني أمضيت الليل واقفا لصق الباب، أذبُّ الجرذان المتقافزة حولي دون أن أرها. الحاوية يا صاحبي قبر فوق التراب.

حين فُتحت مزاليج الحاوية صباحاً، شعرت بالانبعاث وكنت أرغب في تفقد آثار أنياب الجرذان في جسدي، لكن الحراس انهالوا عليّ بأيديهم وأرجلهم حَثّا لي على الإسراع للوقوف في جلسة ثانية أمام المحقّق:-

- أمامك خياران: إمّا أن تجالسني معزّزاً مكرّما، وتفتح مغاليق ذاكرتك، وإمّا أن تساق إلى حلبة الملاكمة، هناك ستجد ملاكما واحداً فقط، وستُعَلّق أنت في السقف لتلعب دور الوسادة المتدلّيَة كخروف مذبوح، وبعد أن تنهال اللكمات على جسدك ستندم كثيراً على عدم تعاونك معنا.

- أسئلتك مكرّرة، وأجوبتي لن تختلف عن تلك التي أطلعتك عليها الليلة الماضية....

لا أعرف شيئاً.

- يبدو أنك من الصنف العنيد. «خذوه إلى الحلبة».

عمد الجلاد إلى دلق ما في جعبة غرفة التعذيب على جسدي دفعة واحدة، فخرجتُ مسحولاً، وقد لفّ الملاكم قبضته على رسغ قدمي فراح رأسي يرتطم بالدرجات المؤدّية إلى الطابق الأول، وتُركت أتخبّط بجراحي أمام المحقّق.

قال لمساعده: «ما زال به رمق من حياة. ثم زعق في أذني: «اعترف قبل أن أُمزّقك».

- «لا أعرف شيئاً» قلتها جملة مكدودة متورّمة،

مقطّعة الأوصال، فلم يزد عن إعطاء الأمر للحرّاس: «إلى بيت خالته».

واقتادوني إلى المعتقل.

ما لنا وللكلام النظري... هيّا بنا نعايش الأحداث لحظة بلحظة حتى يُشحن خيالك المتوثّب بصور حقيقية، لا تشكّلها أحلام اليقظة ولا المداد الجاف، وعندها فقط سينطق قلمك أيها الكاتب الملتزم!

أغمض عينيك الآن ولا تخف... سأحشر رأسك في كيس أسود يغطّي الرقبة أيضاً وسأثبت الكيس حول عينيك بعصبة ضاغطة... هكذا...هل ترى شيئا؟!

- الكيس وحده حوّلني إلى كفيف، فكيف وقد هصرت عينيّ بالعصبة؟!

انزع الكيس عن رأسي!

- لقد وافقتَ منذ البداية... احتمل إذاً!

يوم وقفت موقِفك هذا، لم أُحصِ عدد المرّات التي كُبَّ وجهي فيها على الأرض، وقد قُيّدت يداي خلف ظهري... إحمد ربّك فيداك طليقتان وأنا أربأُ بنفسي أن أضربك كي تتخيّل المراسم التي طبعت موكب نقلي على مدى خمسة وعشرين كيلومتراً إلى بيت خالتي في (الخيام). لقد شارفنا على الوصول يا صاحبي... أما زلت مُصراً على مواصلة اللعبة؟

- لن أتراجع.

ـ هل تعلم أين أنت الآن؟!

ـ ما تلقّاه وجهي يُنبئ عن ارتطامه بجدار!

ـ هذا ما أصابني يومها، وحين تراجعتُ خطواتٍ إلى الخلف، انهال الجلاد على جسدي بعصاه حتى تكسّرت. استشاط غضباً وقد فقد عصاه الغليظة، فصرخ بأعلى صوته: هاتوا الكرباج!

وظلّ السوط يجلد انتفاخات جلدي نصف نهار، لم أعد معه أتبيّن ممّا يدور حولي سوى اختلاف الأصوات الضاربة على مدى ساعات ستٍ.

فلو ذُقْتَ ما ذُقْتُه من عذاب، هل كنت ستعترف؟

ـ ربّما اعترفتُ بما لم أقم به أيضاً!

ـ أخطأت الآن مرّتين:

ـ أولاً: شدّة الضرب تُعطّل مراكز الألم في جلد الإنسان، تُخدّرها، فيفقد المضروب في تلك اللحظة أي إحساس بالألم. ألم تخبرني بأن الطبيب انتزع إظفر إبهام قدمك وأنت تمازحه؟ ما الذي شعرت به بعد زوال مفعول المخدّر؟

ـ آلام لا تُحتمل!

ـ ذلك ما شعرت به آنذاك. أما خطأك الثاني فهو اعتقادك باحتمال تراجعي أمام ازدياد وتيرة التعذيب... لو عكستَ لأصبتَ... إصرار وعناد أفقدَ الجلاّد صبره فانقضّ عليّ راضخاً جسدي، شاتماً مجدّفاً...

عندها فقط شعرت بحلاوة الانتصار وببلسم الإيمان يداوي كلومي.

الساعة الآن تشير إلى الثامنة مساءً. في مثل هذا الوقت استبدّ اللهاث بالجلاّدين فسحلوني نحو غرفة التحقيق جثّة بلا حراك، تتهادى منها خيوط حمراء ترسم على الأرض ثعابين متلوّية.

ماذا سألني المحقّق اليهودي، وبماذا أجبتُهُ؟ الله أعلم.

كلّ ما أذكره جملة واحدة تفوّه بها جلاّدي: «لم أرَ أيبس من رأسه».

ما دلالات هذه العبارة؟

- الله أعلم!

- وأنت ستعلم بعد قليل! دعني الآن أنزع الكيس والعصبة عن عينيك وقد أمسيت نزيلاً معترفاً به في معتقل (الخيام) سأناديك من الآن فصاعداً باسمك الجديد (٧٤٢).

لا تحزن لتحوّلك إلى مجرد رقم. أنت في ضيافة من لا يفهم إلاّ لغة الأرقام.

هذه الزنزانة الصغيرة ... أتراها ؟

- نعم ! تحمل الرقم (١٩)!

- أحسنت القراءة... أما أنا فلم أستطع ليلتها رؤية أيّ شيء لسببين:

انعدام الإنارة الخارجية، ونضوب ضوء عيوني المتورّمة... تفضل بالدخول!

طبعاً! لم يبجّلني الجلاد يومها بمثل هذه الكلمة البروتوكوليّة المهذّبة، بل دفعني بحذائه السميك على ظهري، فعانقت جدار الزنزانة وجهاً لوجه قبل أن أتكوّم على أرضيتها.

صف لي الزنزانة من الداخل الآن!

- ظلمات متراكمة... أنا واقف الآن... طولي ١٧٠سم ... شبر واحد يفصل رأسي عن السقف... الزنزانة مربّعة تقريباً... طول ضلعها مقدار خطوة منفرجة... متى ستفتح لي الباب يا (أحمد) ؟

- تصبح على خير يا صديقي!

لن تنفعك الاستغاثة، ولن يجديك قرع الباب الحديدي إن فعلت فسيُضاعف لك العذاب مرّتين!

.....

صباح الخير...

أفٍ لهذه الرائحة الكريهة... لماذا فعلتَها في الزاوية؟ ألم تلحظ وجود السطل؟ الحقُّ عليَّ... كان من واجبي أن أخبرك بان السطل ينوب عن المرحاض وأننا كُنّا ملزمين بحمل الدلاء الملآى بالقاذورات من الزنازين لدلقها في أماكن محدّدة. قد تتساءل عن الطهارة والصلاة!

إنّ من يحرمك الحياة لن يفكّر في توفير شرط وجودها أمامك... أقصدُ العبادةَ...

لن أسألك كيف قضيت الليلة؟ لكنني أجزم بأنّك لن تمضي في اللعبة إلى أبعد من هذا الحدّ... ألَستَ عطشاناً؟

- يكاد الجفاف يثقل خطوي!

- لم يخالجني هذا الشعور آنذاك... بعد ساعات يعلم الله عددها، عاد إليّ خيط من الوعي فوجدتُني مَطْوياً كما طويْتَ نفسك الليلة... أفترشُ الأرض، وألتحفُ السقف الواطئ.

انتزعتُ جراحي عن الأرض فتضاعفت بُرَحائي. حاولت فتح فمي فلم أُفلح... العطش يجفّف لعاب الشفتين، ويحوّل مخلّفاته إلى مادّة لاصقة... أسلمت أمري إلى الله وأنا أتذكّر:

يا نفس من بعد الحسين هوني

وبعده لا كنتِ أن تكوني

هذا حسين وارد المنون

وتشربين بارد المَعين

أحسست بخدر بارد يجتاح جسدي صعوداً، من أخمص قدميّ حتى يافوخ رأسي، خلته سكرات الموت، فتحاملت على الجراح في صلاة طويلة افتقدت فيها القِبلة، وطهارة الجسد والثوب والمكان.

من نِعم الله يا صاحبي أنّني بقيت قادراً على التفكير رغم استهداف جمجمتي من قِبل الجلاّدين.

طرقت بما تبقّى من قوة في أطرافي على الجدران الثّلاثة فلم أسمع غير صدى ضرباتي. استهدفت الباب الحديدي بركلة قوية، فانساب إليّ بعد خفوت الرنين صوت عذب أشبه بالهمس:

- «إسمي إبراهيم حيدر... هل تسمعني؟

- أجل ! إجهر بصوتك قليلاً!

- قريباً أُتمّ الشهرين هنا... عوّد نفسك على تحَمّل الأقسى.

- أكاد أختنق في قبضة الضغط والعرق والظلام.

- الابتلاء على قدر المحبّة... أصمد».

انسربت من شقوق البوّابة الحديدية خيوط من نور، ففرحتُ لانبلاج الفجر فرحة لم تدم طويلا وقد راحت الشمس تلهب الزنزانة بسياطها.

تعالت خبطات أقدام السجّان، فعرفت أنّني المقصود. عالج الأقفال من الخارج فصرتُ وجها لوجه مع نسيمات الهواء.

لم ألحظ في يديه ماءً أرطّب به حلقي، بل قيوداً سرعان ما كبّلت كفيّ وراء ظهري وأنا أدرج بخطا متعثّرة نحو غرفة التحقيق:

- هل ستحل عقدة لسانك؟

- لا أعرف شيئاً!

- (حلّوا رتاج ذاكرته) قالها المحقّق آمراً السجّان.

فما عرفت مصدر اللكمات والركلات، ولا أحطت بمواقعها إلاّ بعد جرّي إلى الزنزانة، وسماع عويل جراحي يشهد على الهمجيّة.

هل لك أن تخمّن ما الأمنية الوحيدة التي يرجوها الأسير؟

- الحريّة طبعاً!

لا! الحرية نسبيّة... يطلبها البشر جميعاً، الأسرى منهم والقابعون في منازلهم، في مثل هذه الزنزانة كانت أمنيتي تعطّل حواسي الخمس.

خطرت لي هذه الفكرة وأنا أتناول وجبتي الأولى من يد أحدهم:

طُبَيق أرزّ متعانق الحبيبات، تسحّ على صفحته دموع حمراء، سمّها إن شئت مرق البطاطا، وقطعة لحم، يعلم الله من أيّ حيوان قُدَّت...

قلت له: الماء أولاً. فناولني إبريقاً بلاستيكيا عفِنا، وسكب فيه ما يشبه الماء.

خِفتُ أن ينضب الماء عندي، فدلقتُ الإبريق في جوفي، ومددته إليه، فابتسم بخبث قبل أن يقذف به في وجهي.

لم تسلني عن الخبز !!

(توست) وصف أجنبي رائق لشرائح خبز لذيذة متساوية الأضلاع والسماكة، لكنّها كانت تصلنا عجفاء تقارب الكعك في صلابتها مزركشة الأطراف بشريط أخضر، تخال العنكبوت تتأهّب لنسج خيوطها عليه.

رفضتُ تناول الطعام وقد جاشت أمعائي في موجة من الغثيان.

وكأنّ (إبراهيم) اطّلع على ما يجول في أحشائي، فسمعته يناديني من زاوية الباب:

«ازدرد الطّعام مهما كان سيئاً... الانتحار حرام. توقّع التحقيق والضرب كل لحظة... قل مع كل ضربة تتلقّاها: أحدٌ... أحدٌ».

لم تطل المحادثة بيننا، قطعها السجّان بلبطةٍ قوية على باب الزنزانة إيذانا بنقلي مكبّلا معصوب العينين، إلى وجبة جديدة من وجبات التحقيق:

«إذا كنت تظن بأنك قاسيت كلّ أفانين العذاب فأنت مخطئ، كلّ ما مضى كان دغدغةً بسيطة. سآمرُ بالبدء في الجولة الثانية إن رفضت البوح بالمعلومات.

- لا أعرف شيئاً!

- طفح الكيل... أنا سألقّنك الدرس هذه المرّة... ناولوني الكرباج.

ورحت أتلوّى تحت الضربات المتلاحقة حتى خلتُ جلدي ينسلخ مع كلِّ ضربة.

وأنا في طريقي إلى الزنزانة سمعت السجّان يخاطب زميله:

ـ ما زال (أحمد) مُصراً على الإنكار... هو حرّ... اختار درب الآلام.

ـ لا ! لم يعد حراً. زميله (...) اعترف بكلّ شيء!

وقع الخبر عليّ وقع الزلزال، لكنني تمالكت نفسي ولم أنبس بحرف.

في البدء ظننت الحوار بينهما يندرج في خانة الحرب النفسيّة، لكنّ ما حدث في اليوم التالي أثبت لي صدق الخبر.

كنت أحمل سطل النفايات، فشاهدت الحرّاس يدفعون أخي في الله (...) إلى داخل سيارة عسكريّة.

التفَتَ إليّ السجّان قائلا: سيدلّنا (...) على المكان الذي خبأتما فيه السلاح وحين نعود، يا ويلك ويا سواد ليلك.

ـ لم أعتد هنا غير السواد!

ـ لم تر شيئا بعد!

لم يعودوا سالمين، انقلبت بهم ملاّلة العملاء بفعل لغم مقاوم، جرح أحدهم ورضّ الباقين ونجا (...) من الإصابة بأي أذى.

لحظات الانتظار العادية تنهش السكينة، فكيف تتخيّل انتظاري آنذاك؟

سمعنا جلبة وصراخا غير عاديين فأيقنّا بشرٍ ماحق.

لم يمهلني السجّان للاستغراق في الاستنتاج، لبَطَ باب زنزانتي بحنق بالغ وتناولني باللكم والشتائم: «أنت تنصب الشّرَك، وزميلك (...) يقودنا للوقوع فيه ؟ وحياة الربّ لأجعلنّك تندم على اليوم الذي ولدت فيه».

ولا أراك الله ما أرانا...

إن أردت تخيّل مقدار الضرب فاجمع ما سبق ذكره من ألوان العذاب في اليومين السابقين واضرب الناتج بثلاثين ضعفاً.

تَمَّ سحلنا معصوبي العيون، مقيّدين إلى الساحة. تعال لأريكها:

كما ترى... مساحتها ٦×٤ أرضيّتها مطبات اسمنتية غاضبة الأنياب وسماؤها شمس لاهبة، نهارها جحيم وليلها زمهرير، ونحن بين الليل والنهار أكتاف متلاصقة وأطراف متراصّة، لا يفرّقها إلاّ سجّان ينقل قدميه متقافزاً فوقها.

أترى ذاك الشبّاك الحديدي هناك؟!

- أجل !

- تفضّل لنقرأ مذكرات يومي الرابع المحفورة عليه.

إن لم تخنّي الذاكرة فقد كان يوم الأثنين، والشمس لمَّا ترسل أشعّتها لتدفئة عظامي.

فوجئت بيد تضغط كتفي: قم يا أخو...

لم أحصِ عدد الأخوة الذين تعثرت بهم حتى وصلت إلى هذه النافذة.

الآن... قف يا صاحب القلم قبالة الحائط، واضمم يديك خلف ظهرك.

- ماذا ستفعل؟

- هل تنوي التراجع؟ لم يبق إلاّ القليل... عيبٌ عليك إن فعلت!

حسناً... الآن وقد كبّلتُ رسغيك بالكلاّبة الحديدية، اصعد فوق هذا السطل وأدر ظهرك للشبّاك... تماماً ! هذا هو المطلوب... إرفع كفّيك قليلاً حتى أُحكم ربط الكلاّبة بحديد الشبّاك... أحسنت - هل تتألّم ؟

- حتى الآن، لا أشعر بغير ألم بسيط في الكتفين.

- هل شاهدت شخصاً يُعدم شنقاً؟

- أجل ! في أحد أفلام رعاة البقر !

- كيف يتدلّى من المشنقة؟

- يلبط الجلاّد الكرسيّ من تحت قدميه.

- وأنا سأفعل ذلك بالسّطل... هيه !

- آخ... آخ... تكاد تتهشّم عظامي... أنزلني أرجوك.

- تألمت الآن؟! إذا اضرب مقدار هذا العذاب بأربعين ساعة كاملة دون ماء أو طعام مع إسباغ كلّ ألوان الضرب المبرح على جسدك، و تصوّر ما حصل لي!

مساء الثلاثاء صدر العفو عن الشبّاك... وأُلقي بي

في الساحة المكشوفة حتى صباح الأربعاء.

- وكيف احتملت البقاء ثلاثة أيام دون ماء أو طعام؟

- سؤالك ناقص، عليك أن تضيف: ودون زيارة المرحاض.

- حسناً... كيف؟

- أمر الطعام والماء سهل... المريض العادي يمتنع عنهما طواعية.

أمّا قضاء الحاجة فأمر واجب التلبية حين تلحّ عليك أمعاؤك. لا يهمّ الجلاّد أن يتمّ ذلك دون خلع الثياب ولا يكدّره أن تنبعث الروائح الكريهة من الزنازين والساحات وقد حجب أنفه وفمه خلف كمّامة واقية.

ظهيرة الأربعاء شعرت بقبضة السجّان تهوي على رأسي قبل أن يرفع الكيس عن فمي وهو يصرخ: افتح فمك!

وراح الماء يتدافع في حلقي من إبريق في يده، حتى كدت أختنق...

لا أنا قادر على رفض الماء، ولا السجّان يعلم الغيب لتحديد اللحظة التي أُعلن فيها اكتفائي، فلم يكن أمامي إلا إزاحة فمي عن الإبريق مفسحاً للماء بتلويث جراحي.

ثوان معدودات، وتكرّرت اللهجة الآمرة:

- افتح فمك!

هذه المرّة شممتُ رائحة العفن، فأيقنت أنّ الطعام قد حضر.

دسّ السجّان في فمي قطعة (توست) لطّخت صفحتها بما يشبه طعم المربّى، وفغَر السجّان فاهُ مقهقهاً. لم أكن قد اعتدت بعد على تناول الطعام بدون استعمال اليدين، فلم أنل من وجبتي غير قضمة واحدة.

أدرك الأخ الجالس إلى جواري حجم معاناتي فقال: «في المرّة القادمة استعمل شفتيك لدفع قطعة التوست إلى داخل الفم.

- وإذا وقعتْ أرضاً فماذا أفعل؟

- بسيطة... أرسل شفتيك للبحث عنها.

كان سؤالي أول جملة أنطق بها في الساحة... وكانت كافية للفت انتباه أحد الأخوة فناداني بصوت خفيض:

- يا (أحمد) أنا (...) كيف حالك ؟

- حالي مثل حالك مع فارق بسيط: إنني صامد ولم أجبن وأعترف.

- لا تتعجّل بإطلاق التّهم، لقد استدرجني المحقّق بطريقة غادرة:

بعث إليّ أحد الأسرى المسخّرين لتوزيع الطعام، وكنت أثق به، فقال لي:

أخوك في الله (أحمد كريم) يقرئك السلام من الزنزانة (١٩) ويخبرك بأنه لم يعترف بشيء فلا تعترف

أنت ... مفهوم؟!

قلت له: مفهوم... أقرئه السلام وقل له: (...) صامدٌ ولن يعترف!

بعدها بدقائق وجدتُني أمام المحقق يرسم على وجهه ابتسامةً خبيثةً:

ما الأمر الذي لن تعترف به يا (...)؟!

وظل يعذبني يومين متواصلين وأنا ثابت القلب والقدم إلى أن أحضر عصا مكنسة تقطر منها الدماء وقال:

أتحبّ أن تعرف من أين خرجت هذه العصا و أين ستختفي؟!

أسقط في يدي يا أخي، لم أحتمل مجرّد التفكير بهذا اللون من العذاب، فليسامحني الله (إلاّ من أُكرِه وقلبه مطمئنٌ بالإيمان).

بقيت في هذه الساحة خمسة عشر يوماً.. هنا تحديداً... حتى أشفق عليّ ابن صديق والدي، وكان خادما للعملاء... أكرم وفادتي بأن قادني للمبيت في هذا الممرّ المسقوف بعد أن تكرّم عليّ ببطانيّة سوداء، كانت الفرشة واللحاف في آن معاً.

هيّا بنا لأريك الزنزانة الجماعية التي نُقلتُ إليها بعد أن سُرِّب إليّ أن ملف التحقيق الخاص بي قد أُقفِل.

- تبدو كمربط خيل!

- لم أشكّ في ذكائك لحظة، حين شيّد الفرنسيون هذه الثكنة العسكرية عام ١٩٣٣ جهّزوا هذه المساحة كمهجع لفرس واحدة، لكنّني تقاسمتها لسبعة أيام مع خمسة أشخاص، لاحظ أنني استعملت كلمة (أشخاص) بدلاً من أخوة!

السبب بسيط: كانوا أربعة أخوة وعميل زنزانة.

ليس من الصعب اكتشاف العميل، حركاته التمثيلية، هدوء أعصابه، تفخيم عمليّاته البطولية جهله بالمفردات الجهاديّة، احمرار خدّيه الذي يعكس النعمة ورغد العيش، ولا ينبئ عن صفعة واحدة.

أنعم الله عليّ بالصبر، فكظمت غيظي، وتقمّصت ثوب حملٍ وديع مظلوم مستضعَف، لا يقوى على تحمّل عقابيل المقاومة.

في صبيحة اليوم السابع، خرج العميل ولم يعد، فأيقنتُ أنه سينقل الصورة لأسياده كما أَشتهي تماما!

كنت متأكداً أن ملف التحقيق لم يُقفل... أقنعني بهذا، نقلي المفاجئ إلى هذه الزنزانة الإفرادية ذات الرقم (١٧) وخضوعي للتحقيق والتعذيب سبعة وثلاثين يوماً، لم أعترف فيها بغير معلومة ثلاثية الكلمات، كانت تثير حفيظة المحقّق على الدوام: «لا أعرف شيئاً»!

استدعيتُ في اليوم السابع والخمسين للمثول أمام المحقّق، فخاطبني بنبرة هادئة، لم أعهدها منه: «لم أر

أيبس من رأسك، وقّع لي هنا..».

وحين خربشتُ توقيعي على الملف قرأت: ١٩٨٥/١١/١٧، فعدتُ إلى التعلّق بعقارب الزمن رغم أنها شطبَتْ من حياتي أياما أمضّها الألم والعذاب وتركتْ في نفسي وشماً يستعصي على النسيان.

والآن التقط أنفاسك واسترح قبل أن أفتح لك الستارة كي تشهد الفصل الثاني من المسرحية.

ستلعب في هذا الفصل دور الشاهد على ما يستطيع الإنسان فعله إذا فكّر وقدّر وصبر وقرّر. قد يخطر ببالك أن تحرّف بيتاً من الشعر فتقول:

إذا الأسير يوما أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب السجّان

هل تعرف المساحة المحدّدة للدجاجة الواحدة في المزرعة بحسب المقاييس العالمية المعتمدة؟

- .....

- تسعه أمتار مربعة. لكنني تحاشرتُ في هذه الغرفة المنمنمة رقم (٨) مع خمسة أخوة، تأملها بدون تعليق: الطول متران والعرض متران، والسقف سقفان: الأول عبارة عن قضبان حديدية ثخينة، والثاني إسمنت هشّ يمتدّ فوق هذه الزنازين الواصلة إلى هناك. أنظر العفونة ما زالت تعشش في شقوقه. في تلك الأيام كانت خيوط الماء تلسعنا فنتكوّم ملتصقين في هذه الزاوية

الآمنة. لم تكن البطانية الواحدة كافية لدرء رطوبة الأرض ومبازيب السقف عنّا، فاهتدينا إلى طريقة تشاركيّة، يفترش فيها اثنان منّا بطانية واحدة ويلتحفان الأخرى. وقبل أن تسألني عن المرحاض أقول: هو... هو السطل رغم تعدّد السجناء.

ما الذي لم تسلني عنه من احتياجات الإنسان في هذه الحياة؟

- الاغتسال.

- (يا سلام عليك) تُلحّنُ الكلمة بملء فيك. هذا هو الحمّام العمومي، سأضبط لك الساعة الآن وستدخل ثم تخلع ثيابك وتغتسل ثم تجفّف جسدك وترتدي ثيابك وتخرج أمامي في أقلّ من دقيقة.

- أعوذ بالله... هذا رابع المستحيلات.

- إذاً أنت أمام سلوكين نتيجتهما الضرب الشديد: رفض الاغتسال أو تجاوز المدّة، أقصد الدقيقة.

أما إذا خرجتَ مبلولاً وسحّ الماء منك فلسوف أجبرك على لحسه بلسانك.

هيا أسرع! بدأ العدّ التنازلي: ٦٠-٥٩-٥٨-٥٧ ----- ٣٠

ما هذه السرعة؟ لم تتجاوز ثلاثين ثانية، فكيف اغتسلت؟

- لم اغتسل... تطيّبت بالماء فقط!

- أحسنت... هذا ما كنّا نفعله خوفا من الضرب،

والمضحك أننا لم نكن ننسى (الإيتيكيت) فنقول لبعضنا: نعيماً!

لم يكن أمامنا من حلّ، وقد تمادى العملاء في سوء المعاملة إلاّ الانتفاض، فأعلنّا الإضراب عن الطعام ليومٍ واحد، وسرعان ما انتشر القرار بين الأخوة في الزنازين جميعها. فلم يذق أحدٌ لقمة طيلة ذاك اليوم...

جُنّ جنون العملاء... حاولوا إخراجنا بالقوّة فرفضنا صارخين بصوت واحد: (الله أكبر). عبارة زلزلت أقدامهم، ففرّوا هاربين.

بعدها وزّعونا على غرف أخرى، زعموا أن ظروف العيش فيها أرحم من سابقاتها. فانتقلتُ إلى هذه الزنزانة (١٥) وكنت خامس أربعة نذروا أنفسهم لله، لم يثننا ضيق المكان عن الارتحال مع الروح إلى أعلى عليين في عبادة جماعية تُرخي علينا ظلال الأُنس والطمأنينة، فلا يكدّرنا العذاب تلو العذاب، ولا الحرمان من رؤية الأهل والأحباب، كان الله مؤنسنا والقرآن صاحبنا والصيام جُنّتنا، فما عادت أجسادنا تطلب أكثر من لقيمات عفنة نقيم بها أصلابنا، ولا التمستْ عظامنا الدفء في ليالي كانون الزمهريرية إلاّ من حرارة الإيمان والحمّى المرافقة للأنفلونزا.

لكننا رغم هذه المثاليّات بشرٌ من لحم ودم وأعصاب وروح، تخيّل أن تُجبر على لبس ثيابك شهوراً طويلة دون

أن يمسّ جسدك الماء والصابون، أو أن يجرجر السجّان زوجتك و فلذات كبدك أمام ناظريك، وأنت مقيّد خلف القضبان تلوك حقدك وغيظك وعجزك. أيّ معني يبقى للحياة حين يصبح اكتحال عينيك بشعاع الشمس أمنية.

كلّ هذا يهون أمام ما حدث في هذه الزنزانة في عاشوراء ١٩٨٦. أسميناه عام العطش. قتّروا علينا الماء تدريجياً إلى أن فوجئنا بانقطاعه يومين كاملين وكان آب اللهاب في تلك العاشوراء يرسم أمامنا مسيرة قافلة النور على خُطا الظمأ الشديد.

ذبلت أصواتنا مع جفاف الحلوق، وارتخت مفاصلنا، فلم يجد زميلنا بُداً من شُرب بوله. لم يلمه أحدٌ... كان الحل البديل هو الانتحار.

لم نركن إلى الاستكانة أمام مشهد كهذا. قمنا من فورنا نضرب الأبواب ضربة رجل واحد صارخين، حتى أُجبر العملاء على توفير المياه.

قد تقول: فرغت جعبة السجّان بعد أن طبّق على أجسادنا وأرواحنا كلّ وسائل التعذيب!

لا يا صاحبي، لم تفرغ. إبليس يتلقّى من شياطين الإنس دروساً.

ناداني السجّان يوماً... رأيته يبتسم ابتسامة ساخرة لئيمة، فتعوّذت بالله منه

قال: «والدتك ضُربت على رأسها من قِبَل الجنود حتى يقصّروا لسانها، ووالدك معلّق في الساحة على الشبّاك».

كان يتوقع انهياري أمامه، لكنني ابتسمت هازاً برأسي: «كلّ جراحنا وعذاباتنا فداء لصاحب الزمان... يوم الثأر قريب... بل أقرب مما تتصوّرون !

هذه الزنازين يا صاحبي تجمعها كلمة واحدة، ما هي؟

- معتقل!

- هل تصدّق إنّنا قلبناه إلى مدرسة؟ نعم! لا تعجب، كلٌ منّا كان معلّما، عدّته معلومات تخزنها الذاكرة، وأدواته صابونة تنساب على الباب ترسم الكلمات والأشكال.

عَلّمت إخواني اللغة العربية والفقه والسيرة، وتعلّمت منهم التفسير والحديث والعلوم العامة.

ليس هناك شرّ خالص. الإصرار يحوّل الهزيمة إلى نصر، وظلام السجن إلى كوة مضيئة تنسرب منها أنوار العلم والخير.

السجن يعلّمك الصبر والحذر وحسن السلوك. يكسبك الإخوان في الله. يصهرك في فرن آلامه، فتخرج نقيّاً صافياً شفّافاً مؤهّلا لالتقاط الأنوار العلويّة، يتغلغل حبّ الله في أعماقك، فتسلم قيادك

إليه، وتجعل اتّكالك عليه.

السجن يعتقل فيك الحريّة ويطلق منك الروح... تخرج منه بمواعظ وعبرٍ تجعلك في عيون الأحرار فيلسوفاً واسع الثقافة، ثاقب البصر والبصيرة، بارعاً في التحليل النفسي. أكثر من ذلك ! لم نكفّ عن الجهاد حتى ونحن خلف دهاليز الظلام.

اسمع هذه النوادر:

كشفنَا عميل زنزانة بيننا، فهدّدناه بفضح أمره بين الناس، ورحنا نغسل دماغه بمحاضرات متنوّعة راوحت بين الترغيب والترهيب فصار يعمل لخدمتنا بدل أن يخدم العملاء.

وذات يوم كشَفْنَا عميلاً آخر داخل الزنزانة، فخيّرناه بين أمرين: التوبة أو فضح أمره، فهزئ بنا وغادر الزنزانة، ولم يطل به الأمر تحت الشمس، حتى قبض عليه أخوتنا في بيروت.

كنّا نضحك لمثل يتندّر به الناس: السجن للرّجال.

بعد التجربة تأكدتُ من صحة هذا القول: جارَ الدهرُ على شابّ (نعنوع) طريّ الكفين وقذف به إلى هنا.

انتحب حُزنا كما النساء، فما كنت تراه إلا مُطرقا كئيباً، يلوم نفسه على حمل لواء (لا)، لكنّ جلسات التعذيب بدّلتْ جلده، وقلبت دماغه، رأساً على عقب فقام ينتفض في وجه الجلاّد بشراسة أذهلت العملاء لكنّها

لم تفاجئنا؛ بذرة الخير فينا إلى يوم القيامة.

هذا النعنوع صمد مُضربا عن الطعام ثلاثة أيام بلياليها، ولم يتراجع رغم جولات الضرب والعذاب فلم يجد الجلاد بُدّاً من تحطيمه فأُدخل المشفى بالوناً منفوخاً من شدّة الورم.

وأعلم الآن أن قدميك تورّمتا وقد وقفنا طويلاً أمام هذه الزنزانة (١٥)، هي أيضا ملّت وجودي عامين كاملين، قهرتُ فيهما جلاّدي، ونشرتُ العلم رغما عن أنفه، وقدتُ الانتفاضة الثالثة، فأضرب الأخوة الأسرى عن الطعام يوماً كاملاً أثمر انصياع العملاء لمطالبنا، فتمّت مضاعفة دقائق الاغتسال.

عرفنا الخاصرة التي تؤلم العملاء: العبد يحاول إرضاء سيّده بشتّى الوسائل، يطمع في الظهور أمامه كمسيطر على المعتقل، وضابط للأمن فيه، فكيف يحتمل انكشاف أمره كعاجز عن كَمّ أفواه المعتقلين وبتر قبضاتهم الخابطة على الأبواب.

انتفاضتنا الرابعة كانت يوم استشهد أحد الأخوة تحت مطرقة العذاب. كان ذلك في ١٩٨٧/١١/٧ يومها تجاوبت صيحات (الله أكبر) في الوديان، فلم يجد العملاء بُدّاً من تخفيف المعاناة عنّا فنعمنا بتذوّق الشاي للمرّة الأولى بعد سنوات من الحرمان، ونعم المدخّنون باللفافة الأولى.

كان فتات الطعام يجتاز الحدود إلينا، مُغلّفا بالعفن، وبكلمات عبريّة. ولطالما ذهبتْ صرخاتنا المطالبة بطعام وطني أدراج الرياح. فكان لا بد من الإضراب، لم نذق طعامهم ثلاثة أيام كاملة.

في صبيحة اليوم الرابع مخر أنوفنا عبق المناقيش، مُعلنا انتصارنا على الجلاّدين.

لم يكن السجّان غافلاً عمّا يدور. عرف أن زنزانتنا مقرّ القيادة. فساقنى إلى تعذيب من نوع جديد.

هل تعرف لماذا يُستخدم هذا الدولاب؟

- إنّه إطار سيارة مستهلَكٌ، قد يُحرق في المظاهرات الصّاخبة تنفيساً عن الاحتقان.

- أمّا الجلاّد فلا يستعمله لهذا الغرض. إخلع حذاءك يا صاحبي... حسناً... والآن أدخل ساقيك حتى الركبتين إلى جوف الدولاب ... جميل جداً ! والآن أتحدّاك أن تتمكّن من إدخال رأسك حتى الكتفين.

- بسيطة ... هيه !

- أحسنتَ ... والآن ما رأيك بتذوّق (الفَلَقَة)؟

- أجزِ عني هذه الكاس... سأكتفي هنا بالوصف النظري وسأضرب الألم الناتج عن التقوقع داخل الدولاب بخمسين ضعفاً.

- إن أفلحت في التملّص من (الفلقة) فلن أرضى بحرمانك متعة لعب دور المصباح الكهربائي.

سيشعّ النّور في داخلك بفعل هذا الجهاز المولّد للطاقة الكهربائية. لن أدع الملقط الكهربائي يضغط مكاناً حسّاساً من جسدك...

هنا سأعلّقه في إصبع يدك، ولك الحريّة في نزع الملقط ساعة تشاء.

سأبدأ الآن في تشغيل المولّد يدوياً.

لماذا نزعت الملقط بهذه السرعة.

- نَمّل جسدي بشكل تصاعدي حتى كدّت أفقد الوعي!

- أما أنا فقد فقدتُ الوعي يومها...

لم أكن قادراً على نزع الملقط وقد قُيِّدت يداي خلف ظهري.

وجدت نفسي لاحقا في هذه الزنزانة الإنفرادية(١٨).

حين تطول مدّة الأسر يصبح التنقّل بين الزنازين مؤذياً للنفس أكثر من التعذيب.

لكنني وجدت فيه غايتي المنشودة... صرت أنقل العلم وأتلقّاه من مجموعة إلى أخرى حتى اغتاظ السجّان فعاود ركلي بحذائه السميك على مفصل الركبة هنا حتى ازرقّ الجرح ملتهباً، وكدت أصاب (بالغرغرينا) لولا أن تداركني الله برحمته ونقلت إلى مستشفى مرجعيون لاستئصال الورم.

تناهى إلى سمعنا خبر بناء سجن جديد يحمل رقم (٤) فتاقت نفسي إليه،

لم أكن أعلم أن الملل سيقضي عليّ وأنا أقلّب النظر في الجدران الكلسيّة الناصعة فلا أقرأ على صفحتها مذكرات الأخوة وتواقيعهم. في زنزانة كهذه تشعر أنك أول أسير في هذا المعتقل، فلا تلمس حميميّة المكان، ولا تتعلّق بدورة الزمان وأنت الصّفر الذي تنطلق منه عقارب الساعة.

قلت للسجان: إختر لي ما شئت من الأسوأ، المهمّ أن تخلّصني من هذا البياض الشبيه بالكفن.

لم أكن أعلم أنّه ينتظر هذا الطلب فقام يجرّني إلى هذا السجن رقم (٢) تحديداً إلى هذه الغرفة (٥).

سأدخل وإياك، وأتحدّاك أن تراني في داخلها.

كُنّا خمسة أشخاص ـ ويمكنك استنطاق ذاكرتك لمعرفة قصدي بكلمة أشخاص ـ لا نرى وجوه بعضنا إلا عند استلام وجبات الطعام، نؤدي أدوارنا في مسرحيّة صامتة دام عرضها عشرة أشهر أسميتها: العميان الخمسة.

رتابة ممضّة لا يقطعها غير الشخير المتناغم، وغير تلك الروائح المنبعثة من هذا السطل البلاستيكي.

إضحك ما شئت! صدق ما قال: (من يأكل العصيّ ليس كمن يعدّها).

لاحظ السجّان أنني لم أتلوّ تحت الكرباج منذ شهور طويلة، فاختلق لي ولدزينة من الأخوة تهمة الشغب

وإثارة القلاقل، وسيق بنا معصوبي الأعين نحو الساحة ولن أذكر لك شيئا عن وسائل التعذيب، يكفي أن تعلم أنّني بقيت ثمانية أيام (مشلوحاً) في الزنزانة كجثة هامدة، وظلّت الأورام في جسدي شهرين كاملين وطاب لنا أن نطلق على هذا اليوم ١٣ أيلول الأسود ٨٩.

لماذا أيلول مطليّ بالسواد ؟!

- الله أعلم!

- أشعر بك الآن تتثاءب... اعتراك الملل... لا جديد... زنازين متشابهة ووسائل تعذيب متقاربة... صار الأمر روتيناً بالنسبة لك كمستمع، فما رأيك ببعض الترفيه؟! أترى هذه الغُرَيْفَة؟!

- أية غُرَيْفَة هذا جحر !

- لا تبالغ ! إنّها غرفة٦٠×٦٠×٦٠ سم متعانقة الجدران، لكنّها غرفة. لن ترى ما بداخلها إلاّ إذا سجدت ومددت رأسك إلى داخلها!

- هكذا !

- أجل ! ماذا ترى ؟

- إنها فارغة !

- الآن ستمتلئ!

- ماذا تفعل؟ لماذا تدفعُني بقدمك؟

- حتى تذوق بعض ما ذقْتُهُ! أحد الأخوة أغمي عليه فيها... حلف الشهود أنهم شاهدوا الصراصير تتقافز

فوق جراحه بطيئة الحركة.

أستأذنك الآن... أرغب في استرواح ظلال الغرفة - القبر - رقم (٥). إقامتي فيها لشهور عشر توازي سنوات أسري كلّها.

كان معي في هذه الغرفة أخ صدوق اسمه (بلال)... كان يُسرف في ذِكر مآثر أخيه الشهيد، ولكثرة ما حدثني عنه، رأيته في المنام يغطُّ بجوانحه على هذه الزنزانة ليلتقط زغلولي حمام قبل أن ينطلق بهما مسرعاً.

حاول (بلال) تفسير الرؤيا قال: أنا أحد هذين الزغلولين، فمن تراه يكون الآخر؟!

كنا نسمع ونشاهد أفلاماً تتحدّث عن المعتقلات النازيّة، وكُنّا لسذاجتنا نتوقّع أنّ من يتباكى لظلم أحاط به، لا يمكن أن يفكّر في ظلم سواه!

جانبنا الصواب... الاعتراف بالخطأ فضيلة!

اسمع ما حدث ونحن على أبواب العشر الأواخر من القرن العشرين:

سَرَتْ في المعتقل شائعة تتحدث عن ضرب مميت تلقّاه بعض الأخوة والتهمة: تلبُّسٌ بالصلاة!

لم نُصَدّق ... إتفقنا على أن يجاهر أحدنا بصلاته، فسيق إلى ساحة العذاب وعاد إلينا مهشّماً. عندها وقعت الواقعة، وزلزلت الزنازين زلزالها... صرخات تهزّ الجدران، قبضات تقتلع القضبان... أقفال تكسر، وأبواب

تُهصر.

طبق الخبر الآفاق، فسارع الجنود يطوّقون المعتقل يقذفون الزنازين بقنابل غاز خنقت الثورة.

كان ذلك لخمسٍ بقيت من تشرين الثاني عام ١٩٨٩,

من الذي ساق (إبراهيم أبو عزّة) إلينا ؟

كان صديقا حميماً (لبلال) ... ألّف بينهما المعتقل.

حين قرّر (إبراهيم) زيارة أقاربه في الجنوب، لم يكن مسلّحاً بغير عاطفة جيّاشة تحثّه على صلة الرحم.

وصيّة حمّله إيّاها أبوه قبل أن يغمض عينيه في (عكّا)

لم يصدّق العملاء أن هذا (العكاوي) ذو مشاعر، فاقتادوه معصوب العينين إلى هذه الزنزانة.

أصدقك القول: لقد أبلى (إبراهيم) البلاء الحسن في الدفاع عن حقّنا في الصلاة. وكان العملاء يرصدون حركات المنتفضين.

في اليوم التالي أخرجوا منّا خمسة وأربعين منتفضاً بعد أن غيَّبوا رؤوسنا في عتمة الأكياس السوداء، وأداروا وجوهنا نحو الجدار.

قال الشهود، إنّهم أحصوا كتيبة من العملاء تلهث في استخدام أقسى أدوات الضرب والتعذيب على جسومنا، حتى طُرحنا أرضا بلا حراك، وبأذنيّ هاتين، سمعت جندياً يقول: «جرُّوهم من هنا ... لقد ماتوا !"

لكنّنا لم نمت... الماء البارد حرّك جراحنا- فألقي كلّ

منا في زنزانته يئن تحت مخارز الألم.

ليلتها لم يحتمل (بلال) الغازات الكيماوية السامّة وقد أنهك (الربو) رئتيه... راح يبصق دماً والأخوة يصرخون طالبين الإسعاف... لم يكترث العملاء فقضى الزغلول الأول نحبَهُ ملتحقا بأخيه الشهيد (عماد).

كنت أُخمّن أنني سألعب دور الزغلول الثاني، وإلاّ لماذا رأيت أنا الرؤيا؟!

رحت أنطق بالشهادتين كلّما سنحت لي الفرصة بذلك لكنّ الاختيار وقع على (إبراهيم) فلحق بحبيبه عند الصباح.

لا سلاح يُرعب الأعداء كدماء الشهداء.. راحت تلاحقهم.. تقضّ مضاجعهم تجبرهم على التراجع أمام صوت الأذان يصدح في الزنازين ليل نهار. فما وجدوا ضالَتهم إلى الانتقام إلاّ بتكدير يفوق التكدير، وتقتير يشحّ عن تقتير لم يورثانا إلاّ الهزال الشديد يمتص رحيق الوجوه ولحم الأبدان، فما عدتَ ترى في الزنازين غير هياكل عظميّة تطقطق تحت وقع الهروات في نوبات عذاب قبل الأكل وبعده وسط صمت مطبق، أغمض فيه العالم عينيه عن معاناتنا، وكأنّنا نعيش في جحور كوكب مهجور. فما كان أمامنا إلاّ تسليم الأمر لله وانتظار الفرج.

وقد تستنتج من تراخي لهجتي بعض القنوط والإحباط.

- أظن ذلك!

- لم يتسرّب هذا إلى نفوسنا، لكنّه العجز يفرضه القويّ على الضعيف.

أيّ حول وقوّة يبقيان لأسد هصور، يراوح مكانه خلف القبضان، دون ماء أو طعام؟ لكنْ أتدري؟ الجوع يصقل الفكر ويحرّر الجسد من ربقة الأوشاب والأدران فيغدو الإنسان ريشة مفكّرة، تسامق عوالم الروح، تطوّف في أرجاء الكون تناجي الخلّص من المخلوقات؛ ترمق الإنسان القابع خلف أستار الظلم والطغيان؛ لحظتها فقط يشعر الأسير بالانتصار على الجلاّد، رغم أنّه يتدافع أمام قبضته غير مكترث لسوط يلهب ظهره، ولا لكرباجٍ يكسّر أطرافه.

ينظر إلى جلاده - وقد تراكم الزبد على زوايا شدقيه من شدّة الغضب - نظرة استعلاء تقول: «افعل ما شئت، لن تنال إلا من هذا الجسد الفاني».

سيتضاعف غيظ الجلاّد وسيضاعف لك العذاب، فتزداد الروح ابتساما، فلا يجد مندوحة من إعلان إفلاسه، وقد جرّب المجرّب و غير المجرَّب.

عندها يصبح همُّه الوحيد أن يتخلّص من رؤية هذه البسمة المنتصرة، ليفسح في المجال لجسد جديد يُقاد إلى المعتقل غافلا عمّا يخبّئه له في جرابه من وسائل التنكيل.

لطالما كنت أقول: «سلاح الأعزل الصمود، ومقتل الجلاّد في إصرار الضحيّة على رفض الركوع».مقولة دأبتُ على ترديدها عامين كاملين بعد استشهاد رفيقيّ في الزنزانة (بلال وإبراهيم) وكنتُ مقتنعاً بأن الجلاّد قد يئس من تركيعنا وأنّ وجودنا صار معادلاً لهزيمته، أقرأ ذلك في إعراضه عنّا، وفي الكره النابع من قسماته.

كان أمام حليّن: تصفيتنا أو إطلاق سراحنا، فاختار الحلّ الأنفع له.

هو يعلم أنّ قَتْلَنا سينقلب وبالاً عليه، وقد أقسم أخوتنا على الثأر لكل قطرة دم روت أرض الجنوب.

قلبُ المؤمن دليله، ورؤياه كشفٌ يكرمه به الله (عزّ وجل).

صباح الحادي عشر من أيلول ١٩٩١ أطلعني أخٌ في الله أنه رآني في المنام أخرج من القبر أشيب الرأس واللحية. قلت له: «إن لم أكن مخطئاً فحريّتي قاب قوسين أو أدنى».

عند الظهيرة أخبرنا موزّع الطعام أن ساحة المعتقل تغصّ بضجيج متطوّعي (الصليب الأحمر)... رقص قلبي فرحاً، وقد انسكبت فيه الطمأنينة. أيقنت أنني سأعانق الشمس أخيراً.

أقبل الجلاّد لتخييرنا في الانتقال إلى زنزانة جديدة، لم أصدّقه، وقد هتف قلبي للرحيل، قلت له: سأخرج رغما عن أنفك مهما حاولت التلاعب بأعصابي.

لحظات ترقُّب جمّدت الحركة في الزنازين، فلم تعد تسمع إلاّ صوت جندي ينادي مجموعة، طلب منها تحضير حاجيّاتها.

كل واحد منا كان يُمنّي النفس بسماع اسمه يتردّد بين جنبات المعتقل، وكأنّه نسي أنّ هذا الاسم كان مرافقا له طيلة سنوات العذاب.

كانت الدموع أول هاتف يطلقه المحرّر قبل أن تتعالى من فمه صرخات (الله اكبر). نودي على (أحمد كريم) فانتابتني الحيرة...

كان ابن عمّي معتقلا أيضا ويحمل الاسم عينه.

قال المسكين للجندي: اذكر لنا الرقم.

فقال (٧٤٢).

ماذا أقول لك يا صاحبي؟ هل غمرني فرح العالم كلّه؟

هناك لحظات تصعب على الوصف، أتدري لماذا؟

الوصف يعكس ماهية موصوف حقيقي! فكيف تصف ما هو أغرب من الخيال؟

عانقتُ مَنْ ظَهَر أمامي من الأخوة. والدموع تغسل وجنتيّ، كنتُ حزيناً لبقائهم خلف القضبان... أرى نفسي معهم وهم ينتظرون وجبات التعذيب.

لا أدري! فرُغم سعادتي الغامرة، كان الحزن ينهشني... ابن عمي وابن اخي ما زالا يقبعان هناك...

ذكرياتي التي خربشتها على مدى سنوات ستٍ، ظلّت معتقلةً على الجدران، أشيائي الصغيرة...

صوتي المجلجل...

نتف جلدي العالقة بالكرباج...

دمائي المنسحبة على بلاط الساحة...

كيف أتخلّى عن أجزائي الغالية؟!

كانت فرحتي ناقصة.. لم يستطع تسعة وعشرون محرّراً تعويضها وهم يهزجون في الحافلة وهي تلتهم الطريق إلى ثكنة (مرجعيون).

قال لنا الحراس: «ستدخلون لوداع الجِنرال».

انتابنا غَمٌ شديد... لم نكن نرغب في رؤية شيطان.

تبسّم في وجوهنا قائلا: لا تؤاخذونا!

فلم ينبس أحدٌ ببنت شفة، وقد عقد الحقد ألسنتنا.

لستُ أدري ما الذي كان بإمكاننا أن نفعله وفوهات البنادق محشوّة في ظهورنا.

قدّم إلى كلٍ منا مُغَلّفاً، ظننّا في البدء أنّه قرار العفو الصادر بحقّنا.

وكانت الفاجعة عندما فتحنا المغلّفات في الحافلة لنجد فيها خمسين دولاراً.

ضحكنا حتى الثّمالة، وقد قيّم رأس العمالة معاناتنا الطويلة بهذه الوريقة الخضراء. قلت للأخوة: من يزن الكرامة بهذه الورقة فهو أخفّ منها!

نحن الآن نجتاز معبر (كفر تبنيت). كان الحد الفاصل بين النبطيّة والعملاء.

أذكر أننا ترجلّنا من السيّارات ونظرنا نظرة صوب (الخيام) قبل أن نشرع صدورنا لنسائم الحرية تهفهف بها رايات صفراء هبّت لاحتضاننا.

لم يكن الأهل على علم بانعتاقنا، لكنّنا لم نشعر بالفراغ العاطفي.. لحظة التحرّر تحوّل المواطنين كلّهم إلى أهل. رأيناهم يتدافعون لعناقنا.. يهدهدون جراحنا فنسيت بلمح البصر ستّة أعوامٍ من القهر والإذلال.

الحبّ يطمس كلّ ما عداه.. يسمو فوق الألم. والحرية نعمة لا يمكن تشبيهها إلا بالأكسجين، كلما حصلت عليها طلبتَ المزيد، وكلما رفلتَ بأثوابها تذكّرتَ من عَرِي منها خلف القضبان.

ترك الأخوة لنا حريّة اختيار وجهة الانطلاق، فلم يكن أمامي غير (بيروت) حضنها الآمن يعيد الحياة إلى عظام هرسها الجلاّد بهراواته، كي تتكاتف الخلايا من جديد في تآلف يُذكي جذوة النضال بعزمٍ من حديد، لا يفلُّه ظلام الأسر ولا يفتُّ في عضده أنين الجراح.

لم أجد أمام الصحفيين ما أقوله غير: «ما زلتُ قادراً على ضغط الزّناد».

عجب البعض منهم، قال: «الحياة حلوة ... الأمّ - الأهل - الزواج ... الذريّة..».

فقلت: «كل هذا جميل ولكنّه مع فَقْد الحريّة يساوي صفراً.

الحريةُ تعطي الأشياء معناها الحقيقي.

حين علمتْ والدتي بالبشرى، ركبتْ جناح الشوق على عجل نحو العاصمة.

كان الصباح، وبيروت تفتح جفنيها للارتواء من النّور؛ هي التي لم تعد تتثاءب وقد نالت قسطاً يفوق الحدّ من النوم والتراخي.

شرّعتُ النافذة مرتحلاً مع قرص الشمس ينهض من خلف التلال، فلمحتُ عجوزاً تتوكأ على عصاها، تظلّلها ملاءة ترتجف منها الأردان.

هفا قلبي إليها، قلتُ: تشبه أمّي. القامة قامتها والملاءة ملاءتها، لكنها تبدو مختلفة ـي غريبة في مشيتها... هي التي كانت تُلَقَّبُ بالمكّوك في الضيعة. ما لخطاها اثّاقلت؟ أهو الشوق كبّلها؟!

لم أنتظر وصولها وقد عطَّرتْ بعبَقِها الآفاق أمامي، هرعتُ إليها في اتّحادٍ يُنبئ بولادة جديدة تختزل المراحل، وتضع على سلّم الحياة رجلاً دخل المعتقل وهو يرنو إلى تحرّر الأوطان وخرج منه رافعاً شعار: تحرير الإنسان.

لم أسلها عن تعثّر خطاها... أعرف السبب والمسبِّب.

ولم تسلني عن ترقّق عظامي وقد اطمأنت إلى قدرتي على التحليق.

لم أرافقها إلى (دير سريان). فضّلتُ أن أنطلق بجناحيّ من العاصمة.

سبع سنوات وأنا أداوي ارتعاشات أطرافها جرّاء الضربة الغادرة حتى وافتها المنيّة... وها هي ترقد تحت الثرى، تغذّي زيتونة غرستُها فوق القبر، تطلق صرختها في أجواز الفضاء، تفتح عيون الملأ على مسرحيّة لا نهائية الفصول... يفتح فيها الباطل الستارة، ويأبى الحقّ أن يسدلها قبل أن يعود الإنسان إنساناً، وعندها تخرُّ له الملائك ساجدين، وقد أدّى الأمانة.

هذه هي مأساتي بالتفصيل المملّ، فهل اهتديتَ يا صاحب القلم إلى الخيط الذي تنسج به القصّة؟!

- وما عساه الحبر يضيف إلى قصة نقشَتْها الدماء والآلام على جدار الزمن؟

والله لن أزيد على ما قُلتَهُ حرفاً واحداً.

٢٠٠٣/٤/٢